SCANNED BY
JAMAL HATMAL

سلوى نعيمي

كتاب الأسرار

دار الثقافة الجديدة

كتاب الأسرار

طبعة أولى ١٩٩٤

حقوق النشر محفوظة للمؤلفة

توزيع : دار الثقافة الجديدة
٣٢ ش صبرى أبو علم ـ القاهرة
ت : ٣٩٢٢٨٨٠

رسوم الغلاف والصفحات الداخلية :
هدية من الصديق الفنان جورج بهجورى

الغلاف والإخراج الداخلي :
ف م كوميونيكاسيون ـ باريس

Kitabül-Assrar
"Livre des secrets"

1ère édition

Tous droits réservés

Dessins: Georges Bahgouri
Conception: FM Communication

البطن

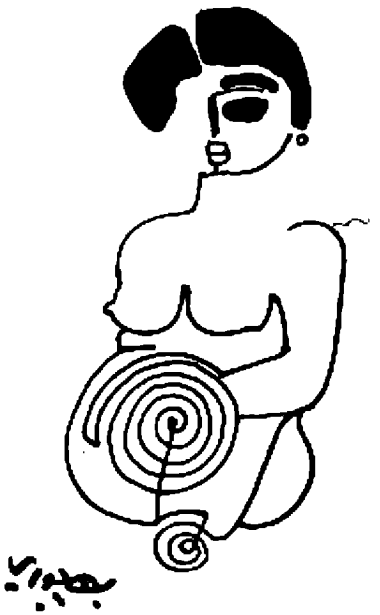

الغرفة مكتمة . عيناي مفتوحتان . وقع خطوات مقتربة بحذر. ينفتح الباب . « دعيها نائمة » صوت أمي . « اطمئن عليها » وشوشة أختي . لا أتحركُ .عيناى مفتوحتان على العتمة .

غرفته كانت مضيئة برغم الستائر التي تغطي النافذة العريضة .ضوء النهار يجتازها بحبور ليسقط عليَّ « ابقي هكذا على ظهرك لا تتحرّكي » أعادَ . أحاولُ ألاّ . أحاول أن أبقى متمدّدةً مفتوحة العينين

. والجرح . فيَّ نبتةٌ رفيعةٌ كعودٍ أضمّ ساقيَّ عليها بحرص البخيل .

قال « لم لا نحتفظُ به » قال الجملة التي عليه أن يقولَها (أو يظنُّ أنَّ عليه أنْ) . قالها بسرعةٍ وكأنّه يرميها في وجهي متخلصا منها (أنا التي أمضي أيّامي في الكلام مع نفسي كنت قد قلتها لي منذ البداية . تحاورنا طويلا وترددنا طويلا ، الكرةُ الآنَ في ملعبي . كلماتي لي وحدي وأحلامي ولحظات زعزعتي) . جاء جوابي الذي كان ينتظره (أو أظن أنّه كان) . تابعنا السيرَ في الشارع المشجر ، تحت شمس دمشق ، وكأننا عاشقان ، نخطط للعملية المقبلة .

كانت الغرفةُ مضيئةً وكنت وحدي . قال « سأذهب لشراءِ بعض الطعام . أنت جائعة » لم أكن . يريد

أن ياكلَ أو يريدُ أن يتخففَ من وطء هذا الذي نحمله معاً .
قال متضاحكاً « لن أتاخرَ . لا تخافي » . « لست خائفةً . لن يذبحني أخي » أجبت متضاحكة أنا أيضا . أغلقَ الباب وهو ينظر إليَّ . لم أكن خائفةً . بالأمس لم أكن خائفةً . كانَ كلُّ شيءٍ يحدثُ وكأنه لأخرى . أنا كنت نائمةً وصحوت على دمي .

هي لم تصحُ على دمها . ذبحوها وهي نائمة .في العام الماضي رحلَ إلى المدينة البعيدة فجأة . عندما عادَ كان مكفهراً . ماالحكاية ؟كان عليه أن يجد محاميا جيداً لَلدفاع عن احد أقاربه . ماذا فعَل ؟« قتل أخته » كدتُ أقفز فوق مقعدي .مكرهاً كان عليه أنْ يقصَّ عليَّ كلَّ شيء . أسئلتي العنيدة لم ترحمْ أيَّ تفصيلٍ صغيرٍ . في ساعات وحدتي كنتُ أحاولُ أن أتخيلها : صبيةٌ بدويةٌ منفوخةُ البطن ، سكينٌ ودم حار طالعٌ كالنوافير ، صراخٌ وبكاءٌ

وشهقاتٌ . سألتُه « ماسمها» قال « لاأعرف اسمها . أعرف اسم عائلتها فقط » أنا كنتُ أسميها وأراها وأخبئها في قلبِ حكاياتي السرية .

ازاحتْ أمي قلقَ ابي « نزيفٌ بسيطٌ . ليست بحاجة إلى طبيب . لننتظر الصباح » أمي القادرةُ على كلِّ شيءٍ مددتني على السرير ورفعتْ ساقي عاليا . جرعتْني كؤوس ماءٍ مالح . وضعتْ لي وسادةً قطنيةً تمتصُّ الدم وبقيتْ إلى جانبي تتحرك على إيقاع تغييرها . هل فهمتْ ؟ لم تقلْ شيئاً . بين الصحو والغفو كنتُ واثقةً أني سابقى متدرّعةً ببراءةِ الكذب .

قال : « صديقي الطبيب شرح لي أن هناك طريقةً أخرى أقل خطراً ولكنها ليست مضمونة النتيجة . المهم أنّه يستطيع تنفيذها بنفسه . نبتةٌ صغيرةٌ تنتفخُ

بالرطوبةِ وتحرض آلية الـ...» فتحتُ ساقيَّ وانزرعَ العودُ الرفيعُ . سأرويه ساعاتٍ إلى أن ينتفخَ ويطردَ المشكلةَ البادئةَ في التكوّن . هو إلى جانبي يراقبُ محاولات الطبيب. «جرّبتها مرّاتٍ ولم تنجحْ أبداً» يردّد الأخرقُ وكأنّه يريد أن يطمئنني . لو كنتُ في حالتي العاديّة لانفجرتُ ضاحكةً. رسمتُ ابتسامتي الساخرة وهو ينظرإليَّ متفهماً (أو متظاهرا)

بالأمس ، عندما خرجتُ من بيته ماكان هناك قلبٌ صغيرٌ ينبضُ بين ساقيَّ برعونةٍ بل نبتةٌ كعودٍ رفيعٍ مزروعةٌ كي ترتوي برطوبتي . كانتْ فيَّ ربما ، آخرَ الليل ، عندما مددت يدي وتلمستُ دمي « فعلها الغبي . نجحتْ هذه المرّة » هل تنفستُ بارتياح ؟ أعرفُ أني كنت خائفة عندما فتحتُ ساقيَّ في المرحاض . مددتُ يدي فامتلأتْ . أعدتُها إليَّ بفضولٍ متحريةً تلكَ الخثراتِ القاتمةَ. الدمُ

ساخنٌ أحمرُ . الدم يختلط بالماء الجاري ويتحوّل نهراً مزهر اللون « سيفرغ دمي في هذا المرحاض ...».

قلت لأختي في لحظة صحو « اسمعي . إذا حدث لي شيءٌ ستتصلين به » قالت مشاكسةً « لماذا ؟ » يبدو أنها أشفقتْ عليَّ فتابعت « لاتخافي . سأفعل نامي أنت » هو أيضاً قال لي « حاولي أن تنامي . الأمرُ يتطلب ساعات » هززت رأسي وابتسمتُ . بقيت عيناي مفتوحتين على الضوء الراكضِ إليَّ وعلى النبتةِ التي تحاول الانتفاخ بين ساقي .

قال « صديقي يعرفُ قابلةً تعملُ معه في المستشفى . تقوم بعملياتٍ كهذه في بيتها . ستذهبين إليها غداً ، الساعة الثالثة . هذا هو عنوانها» لم أمدَّ يدي لالتقاط الورقة المطوية . « وحدي ؟» سألته . هز برأسه «

نعم » هززتُ برأسي في الاتجاه المعاكس « لا » . بدأ الانتقام . لاأعرفُ متى بدأتُ أحبه ولكنني أعرفُ الآن أنى بدأت في الانتقام منه . عليه أن يكون إلى جانبي وأن يرى بعينيه « إزالة آثار العدوان » . سيكون أسهلَ عليَّ أن أتخلص منـــه (منهما ؟) إذا رأيتهُ ينظر إليَّ وأنا أموت .

أحبه ؟ ربما . يحبني ؟ لاأعرف . ماكان هذا يعنيني ولم أسأله يوماً . نلتقي . نثرثرُ . نضحكُ . أكتب له رسائل لعينةً وأقرأ رسائله الأكثر لعنةً . أقول لأمي إنني ذاهبة لأدرس عند صديقتي وأتسلل إلى بيته البعيد . أخرج من عنده وقد نبت لي قلبٌ صغيرٌ بين ساقيَّ ينبض برعونةٍ كقلبي الآخر . أحبـه ؟ ربما . ولكنَّ أحلامي كانت مسكونة بي وحدي ، بأيامي القادمة ، ولا تتسع لآخرَ . حتى هو ؟

الغرفةُ معتمةٌ . وشوشات أمي وأختي .
عيناي مفتوحتان . أبداً وأعيد . ماالذي يركلني كي أهرب من مصيرٍ كمصيرهما ؟ لاأعرف ماأريد ولكنني أعرف مالاأريد . مشروعُ السنوات الخمس الذي تعيشه أختي : أن تتزوّج وأن تنجب أطفالاً . هل سأقول لها إنني حققتُ نصف مشاريعها بائسة بالنهايات ؟ . بالأمسِ كنتُ مشروعَ أمٍ ولكنني لستُ مشروعَ زوجة . ماذا سأقول لها عندما ستسعى إليَّ غداً بتواطؤ ؟ لو جاء الطبيب لانفجرتِ الفضيحة قنبلة عنقوديّة . هل كانوا سيسألونني عن اسم شريكي في الجريمة وهل كنتُ سأعترفُ بجبنٍ ؟ أبي لن يذبحني وأمي لن تولول وأختي لن تصرخ . المهم هو وأد الفضيحة . سيبتلعون السّرَّ كالأفعى تبتلع عصفوراً . أدركني الصباحُ ولم يأتِ الطبيبُ . أدركني الصباح ولم أمت وحكايتي ستموتُ معي .

أدركني الصباحُ ولمْ أمتْ . عيناي مفتوحتان
وأعصابي كلُّها مركزةٌ على نقاط دمي التي تنزُّ بهدوء
متعقّلٍ . أتابعُ مسراها ومجراها الى مصبّها في تلك
الوسادة القطنيّة الصغيرة بين ساقيَّ . هذا دمي أنا . دمنا
راح في المرحاض وغاص في مجاري المدينة . أينَ تصبُّ
مجاري المدينة ؟ لن أسدّ أنفي .ليس الأمر مقرفا إلىٰ هذا
الحدّ . انضممتُ إلى مَنْ سبَقْ . كان أهلُ مدينتنا يحكون
حكايات عن الطالبات اللواتي يجهضن في مراحيض
الجامعة . أبي كان يعيدُ علينا ، في طفولتي ، حكاية
الزعيم السياسي الذي مات تحت التعذيب فوضعوه في
حوض الحمّامِ وذوّبوه بالأسيد . ماكان عليهم إلا أن
يفتحوا البالوعة كي يتسرب إلى المجاري . لابدّ أنّ هناك
حكايات كثيرة أجهلُها تنتهي في مجاري مدينتنا
كحكايتي أنا . حكايتنا معا . دمنا معاً كان بالأمس. اليوم
هذا دمي أنا .لن ألعقه فضولاً كما فعلتُ طفلةً عندما جرح

إصبعي . هذا دمي ؟ أمدّ يدي وقبلَ أن تسقط القطراتُ على القطن سأتلقفها بإصبعي وأكتب بها اسمي على جبيني . قد أكتبُ أيضاً أرقاماً تؤرّخ لهذا اليوم التاريخي . متعبةٌ أنا . لن أمدَّ يدي ولن أخطَّ حروفاً ولا أرقاماً . يدي غسلتها بالأمسِ وعادت بيضاءَ من غير سوء . نبتةٌ صغيرةٌ كعودٍ تنتفخُ حتى يسيلَ الدم . يحرّرني ويحرّرك . لنحتفلْ معاً بعيدِ استقلالنا . أريد أن أضحكَ عاليا ولكنني متعبة . ماأفضل طريقة للانتقام : أنْ أهربَ منه أم أن أبقى معه ؟ طبقُ الانتقام يؤكلُ بارداً . أريدُ أن أضحكَ ولكنني عاجزةٌ حتى عن البكاء . « صحوتِ » تسأل أختي . « كيف أنتِ ؟ » تتلهف أمي . هل أسألُ أيّنَ يصبُّ بطنُ مدينتنا ؟ .

ديسمبر ١٩٩٢

الملائكة

ماذا يموتُ فيَّ عندما لا أفعلُ ما أريد؟ صداع. جبانةٌ وتافهةٌ . صداع قوانينِ الجسد ، حاجاتِه ربما .منذ متى لم يقبلْني أحدٌ ؟ منذ متى لمْ أفكرْ في تقبيل أحدٍ؟ هذا أشدُّ بؤسا وأضلُّ سبيلاً . صداعُ المرارة التي يتصاعدُ بخارُها إلى الرأسِ . انظرُ إليهِ نائماً . يشخرُ قليلاً . أستمعُ إلى صوت شخيرهِ بلؤمٍ . هذا هو التطوّرُ الزوجي . في البدايةِ كنتُ أنصتُ إلى شخيره ويذوبُ قلبي . علاماتُ البداية . علاماتُ النهاية . ربما ماكان يجذبُكَ في البداية

هو الذي ينفّرك في النهاية . مَنْ حاولَ أنْ يفهمَ هذا ؟ أنا لاأحاولُ . « أعطيتِ الكثيرَ ولم تعط كافياً » قالِ الآخرُ . ماالقليلُ وماالكثيرُ ؟ أعطنا كفاف رغبتنا . القبلةُ الطويلةُ كان يمكن لها أن تحرّكَ سواكنَ . يكفي أن أغمضَ عينيَّ ولكنهما مفتوحتان. الرغبة تتوقفُ في أوّلِ الومض . ماالأصعبُ أن نقول نعم أو ان نقولَ لا؟ لماذا أريدُ أن أقول؟ يكفي أن أغمضَ عينيَّ واجتاز الدفء. « كيف تنام العانس؟» كان يصيحُ به في ذلك الشارع الدمشقي . لا اذكرُ ماذا كان يفعلُ القردُ ولكنّ الناسَ حوله كانوا يضحكون . كنت طفلةً وكنتُ أضحكُ معهم . نومُ العانس ؟ اكتشفتُهُ دون أن أكونَها . اكتشفتهُ إلى جانب رجلٍ ينام هو أيضا نوم العانس . كيف ينامُ رجلٌ وامرأةٌ معاً نوم العانس ؟ بالزواج . بسريرِ الزواجِ . بسنواتِ الزواج . ماذا يبقى من الحبِّ بعدَ الزواجِ ؟ جواب : نومُ العانس . قلتُ « سأتأخرُ يومين » صوتُه البارد صار قلقاً ثمّ جارحاً .

يعاقبُني ؟ ماعادت الكلمة صالحة . بردٌ فعل انعكاسيٌ قديمٍ كانت الغصّةُ في حلقي وأنا أضع سمّاعةَ الهاتف . رحلتْ مع شتيمة . هذه الغصّةُ نفسُها كان يمكنُ لها أن تزلزلني في زمنٍ ماعدتُ أذكرُه . الآن تكفي شتيمةٌ واحدةٌ كي تقفز من حلقي ككرةٍ عابثةٍ . يريدني أن أعودَ في الوقت المحدّد؟ ليس الشوق . يريد أن يطمئنّ على قيامي بواجباتي الزوجية . ماذا يبقى منا بعدَ سنوات الزواج ؟ الزواجُ وحدَهُ . هناكَ كنت وحيدةً ، قريبة من موتي . هنا أنا وحيدةٌ ، قريبة من موتي . وحيدةٌ ككلبٍ أجرب . لا ككلبةٍ جرباء . ماذا يبقى بعدَ سنواتِ الزواج ؟ جواب : صمتُ الزواج . صمتٌ عاديٌ ليس متوتراً ولا مُفْتَعَلاً . قال الآخر « تتدفقين . هذه هي الصورة التي ستبقى في رأسي : صورة امرأةٍ جاهزةٍ للحبِّ . » تدخلينَ الغرفةَ وحدَكِ ، وتغلقين الباب وراءكِ . ماذا كان يموتُ فيَّ أنا الجاهزةُ للحبِّ ؟ خفة البداياتِ وخفقُ أجنحةِ الرغبةِ واضطرابْ

الدم . تمرُّ بسرعةٍ في كلِّ مرّة وتعود مفجوعاً كطفلٍ محروم . من النافذة أرى البحر هائجاً بعدَ عاصفةِ الأمس . الشاطىء مقفرٌ كصحراء . يخطرُ لي أن أنزلَ وحدي في الماءِ البارد . أنغمرُ دفعةً واحدةً ويرتجفُ جسدي . أرتعشُ كرعشةِ الحبِّ . تعدّدت الرعشات والموتُ واحدُ . أنا مفتوحةُ العينين قرب النافذةِ وهو نائمٌ. الطفل يلعبُ وحدهُ. يغنّي. يتكلّمُ . يضحكُ . يصرخُ . يمثّلُ أدواراً . يركضُ إليَّ « متى سنسبحُ في البحرِ ؟ » « عندما تشرقُ الشمسُ» أجيبهُ. « أشرقتْ » يحتجُّ . « معكَ حق . إنها تختفي خلفَ الغيوم » . « لِمَ تختفي خلفَ الغيوم ؟ » يبتعدُ دونَ أن ينتظرَ جواباً . أراهُ يخلعُ سروالَه . يركضُ ليبولَ متابعاً حواراتِه التي لاتنتهي . « سيُجَنُّ لوبقي وحيداً . لو كان لهُ أخٌ أو أخت . » قال يوماً . بخفّةٍ أجبتُ « جان بول سارتر كان وحيداً » ذبحني بنظرةٍ « سخيفة . لاتتغيّرين » . أفتح عينيَّ صباحا ورأسي مملوءةٌ بصورٍ هاربةٍ. لاأتعبُ

نفسي في ملاحقتِها . ليذهب كلُّ شيء . ليرحلْ . أريد أن أبقى فارغةً كطبلٍ . صداع . صداعُ المرارة . مرارةٌ لا المترددة . مرارةٌ لا غيرِ الواثقة . مرارة النوم الرديء . مرارةُ نسيانِ الجسدِ أو تناسيه . غلفيها بالضحكات ، بالتماع العينين ، بالبحث في نظرات الآخرين عَنْ « لَلا الغزالة » . سأرى الآخر . سأقولُ مرحباً وأغمضُ عينيَّ عندما سيقبلني . سيفعلُ وسأفعلُ . كانت شفتاه تمرّان على وجهي ، على عنقي وأنا أنظرُ إليه مفتوحةَ العينين . قرأت مرّةً دراسةً عن القبلة وشرحاً لأسباب لذّتها . نسيت كلَّ شيءٍ . أتحسّسُ وجهه كالعميان . مرسومٌ بخطوطٍ دقيقةٍ . قبلته تتسرّبُ إلى دمي . في الطائرة هربتِ من الآخرين . تذرّعتِ بالنافذة ورائحةِ الدخان وهربتِ . في كلّ مرّةٍ يراني أستعدُّ ينظر إليَّ بريبةٍ « منذ متى هذا العشقُ للسفر ؟» « ضروراتُ العمل » أردُّ متحاشيةً نظراتِه . هل أقول له إنها لحظاتُ تنفسي .

صمامات أماني . فتحاتُ تهويتي . خوفَ الراكد . خوفَ الرمادي . خوفَ الزوجي . أغلقُ البابَ ورائي وأقفز في أيّامٍ جديدةٍ عندما يسألني الآخرون أجيبُ بصعوبةٍ « بخير . بخير . كلُّهم بخير . » أعيدُها بشيء من الدهشة . هناك من يعيشُ حياتي في ذلك المكان . أنا مريضةٌ بالنسيان . أنا صحيحةٌ بالنسيان . قال الخبيرُ النفسي إنّ المتزوجين يمرّون بفتراتِ مدٍّ وجزرٍ كمياهِ البحر ، فتراتِ تعلّقٍ وفتراتِ حدادٍ ، كالليل والنهارِ تتعاقبان ، فبأيّ آلاء ربكما تكذبان . أنا الآن في فترةِ حدادٍ إذن . منذُ متى ؟ ماعدتُ أتذكر وليس مهماً أن . قال « لاأريدُ أن أضيّع عمري . مازلتُ شاباً . أريدُ أن أعيشَ شيئاً آخر . » أنا لاأريدُ شيئاً . في السيارة ، في الطريق إلى هذه المدينة البحرية ، كانت ذراعُهُ تحتكُ بذراعي وساقُهُ بساقي . تذكرتُ حكايةً من حكاياتِ أبي تكرهها أمي . حكاية الرجلِ الذي أراد أن يستفتي الشيخ خائفاً من فساد صيامه بعد

أن قَبَّلَ امرأتَهُ في يوم رمضاني . سأله الشيخ «كم مضى على زواجك ؟» «عشرون عاماً» أجاب الرجل . «لاتخفْ . كأنك قبلتَ مؤخرتي» . ماكان علينا أنْ ننتظرَ عشرينَ عاماً كيلا يفسدَ صيامُنا . أنتَ إلى جانبي وأحاولُ أن أركّزَ إحساسي على نقاطِ تماسنا : لاشيء . منذ عامين تفتح جسدي للمرة الأولى على رجلٍ آخرَ . كنا متجاورَيْن عندما مسّت ذراعُه ذراعي باهتزازات السيارة . رعدةٌ مفاجئةٌ سرت فيَّ . أترقبُ اللحظة التي سنتلامسُ فيها من جديد . نظرتُ إلى وجهه الذي أعرفه واكتشفتُ أنّي أشتهيه . اكتشفت فَرِحَةً أني مازلتُ حيّةً : أتنفّسُ وأرغبُ رجلاً آخر . مازلتُ قادرةً على الرغبة ؟ كمن عاش سنواتٍ بلا رأسٍ ثم تلمس مكانها فجأة ليجدَ أنها نبتت من جديد ، تسمعُ وترى وتذوقُ وتشمُّ وترغبُ . كنتَ تقول : لاتحمليني وِزرَ إخلاصك . إلى جانب ذلك الرجل منذ عامين ، استعدتُ وهجَ دمي ، كمن يخرج من مرضٍ

طويلٍ ، منهكاً وسعيداً معاً . ماذا يبقى بعد سنواتِ الزواج؟ من قبلُ ، حتى في قلب حروبنا كان جسدانا يلتقيان بصمت وعنف ، لنعودَ نفترقَ في الصباح . كانت هذه اللقاءات الليلية آخر مابقي بيننا . أقترب منك ، أحسّ على جلدي رغبتك الممتلئة دماً ، أفتح ساقيَّ وتدخلني صامتين إلا من تنفسنا المتسارع حتى الراحة الأخيرة . لم يبق حتى هذا . أنظر إليك نائماً ويخطر لي أن أخطو خطوة واحدة . تفتح عينيكَ وأستوي على عرشك كما كنتُ أفعلُ يوما . أبقى مكاني وراء النافذة . لم تكن الرغبة وما كان عليَّ أن أقاومها . ماذا يبقى بعدَ سنوات الزواج ؟ نصير ملائكة لاجنس لنا . هاأنذا ممسوحة كورقة . مرّت عليَّ سنوات الزواج كمدحلة . هاأنذا بليدة ، باردة ، ثقيلة ، وكأنَّ أحجاراً تجرّني إلى قاع . صداع . بعضهم تجرّا برغم الريح . أراهم من وراء نافذتي يتحايلون على الرمال والشمس مازالت عصيّة . أردتُ أن أسألهُ : لماذا يبقى من

الزواج بعد سنوات الزواج ؟ لم أفعل . قلت « خطرت لي فكرة » قال « يافتاح ياعليم » قلت « لاتضحك » قال « هاتي لنرى » قلت « تعدني الا تكررها أمام أحد ؟ » صارت ابتسامته أكثر وضوحاً . « هاتي لنرى » قلت « اسمع . ماالجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما .. عدا الزوجين . » سكت برهة . أدارها في رأسه وضحك عالياً . فكر أكثر « ماذا خطر لك ؟ » أجبتُ وأنا أهزّ كتفيَّ « لا شيء . لا شيء » ضحك من جديد وهو يرددها بصوتٍ عالٍ « عدا الزوجين . عدا الزوجين » . صوت ضحكته ورائي وأنا ممسكة بيد الطفل ، متجهة نحو الباب .

نيسان ١٩٩٣

القيلولة

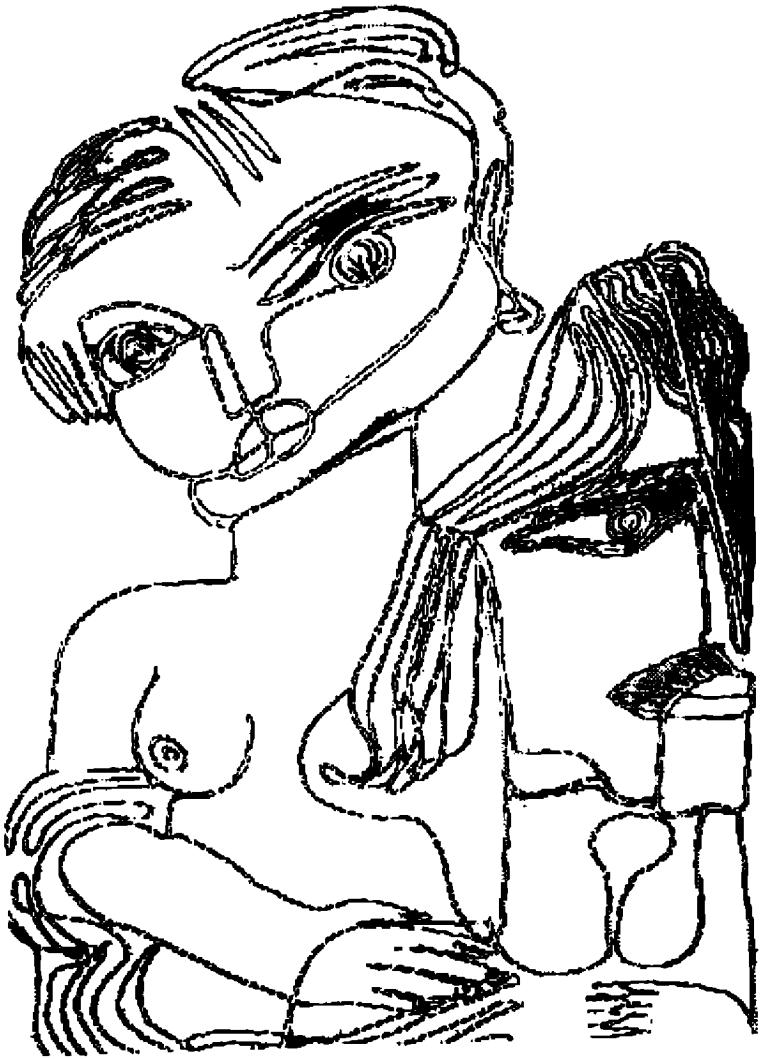

« مارأيك في قيلولة ؟ » كانَ يسألني وكنتُ أضحكُ في كلِّ مرةٍ « نعم . وحدي » يديرُ وجههُ خائباً ، رافعا عينيهِ إلى السقفِ ، مسترحماً الملائكةَ والشياطين . أتابعُ الضحكَ . نبقى في المكان المأهولِ ، في صالة الفندق، نرتشفُ الشاي والقهوة . تبقى رغبتُهُ تتقافز حولي . تسعدني ولا تعنيني.

أمدّ إليه يدي وأفسحُ له مكاناً على السرير إلى جانبي . لماذا قلتُ نعم في اليوم الأخير ؟ جاءتْ وحدَها .

كان يمكنُ أن نفترقَ غداً حاملَيْن طعمَ الرغبةِ المخنوقةِ مَوْتاً.
لماذا قلتُ نعم في اليوم الأخير ؟ سبعةُ أيّامٍ لدراسة « المرأة العربية بين الاستقلال والتبعية » أرقامٌ وإحصائياتٌ ونسبٌ مئويةٌ : العاملات والقاعدات ، الأميّات والمتعلمات ، الفلاحات والمدنيّات . أسئلةٌ وأجوبةٌ وكلماتٌ كبيرةٌ تثير الدوار . أتابع كتابة الملاحظات بدأبٍ وهو إلى جانبي . كان سؤاله المتعثرُ وكانت هزّةُ الرأس ونعم التي تسلّلت خِلْسَةً. غصٌّ كالملهوف يستعيدُها : هل سمعتُ جيّداً ؟ أبتسمُ ولا أجيب . غصّةٌ مختلفةٌ تتصاعدُ وتتهابطُ الآنَ متحايلةً على عنقِه . يتحدثُ متشاغلاً ولا يجرؤُ على الاقتراب « ماتزال المرأة عاجزةً عن المشاركة الفعليّة في صنع القرار » مددتُ إليه يدي وجاء إلي .

في المرّة الأولى قالها واعتبرتُها نكتة . ضحكتُ وضحكَ معي . صارتْ محطةً يوميّةً نتوقف

عندها كلمات ملتبسةً توازي كلمات المؤتمر الواضحة « لم يواكب التطوّر المادي تغييرٌ جذري في مجالِ القيم الاجتماعية المتعلقة بالمرأة // أدّى غيابُ وعي المرأة نفسِها بقضيتها إلى إصابتها بنوعٍ من الفصام الذي يجعلها تتبنى مفاهيم مضادّة لحقوقها » كنتُ أرى عينيه عليَّ ويتوتر جسدي . قيلولة ؟ سمعتُ الكثير وهذه جديدة . لم يقلها لي رجلٌ من قبل ، ولا حتى امرأة . كنتُ أرى عينيه عليَّ ويتوتر جسدي . هل يمكن أن تكون الرغبة معدية ؟ في ضوء بعد الظهيرة المرميِّ بكسل وراء الستائر أستطيعُ تمييزَ عريه الجميل وشيءٍ من الرضا على الوجه الساكن المغمض العينين « مفهوم الرجولة يفرض على الذكر في مجتمعنا أن يمارسَ مختلفَ أنواعِ الخبراتِ الاجتماعية حتى المحظورة منها دون أن يُستنكر عليه ذلك . أما إذا قامت المرأة بالأعمال نفسها ...» عيناي أنا مفتوحتان . أراه ولا يراني .

كانت قيلولة أيضاً في « رجل وامرأة » . عندما عرف أبي يومَها أنني ذهبت لمشاهدة الفيلم صرخ في وجه أمي « مراهقةٌ ترى مشاهد كهذه ستفسد ..» هل فسدتُ ؟ « الرجل المقموع يتحوّلُ في بيته إلى قامع » ركضتْ أختي الصغيرة في شوارع دمشق باحثةً عني على باب سينما « الكندي » قبل أن تتلقفني صفعاتُ أبي . قلت متحدّيةً « ولِمَ لا ؟ أنتَ أيضاً شاهدتَه » وقحة . ارتفع صوتُهُ وطارتْ منفضةُ السجائرِ لتصفر أمام عينيَّ قبل أن تحطَّ شظايا تلملمها أمي مستعيذة بأنبيائها « كلما كانت الأم خاضعةً مسلوبةَ الإرادة ازدادت رغبة الإبنة في السير في الطريق المعاكسة » كانت قيلولة . تخطرُ لي الفكرة للمرّة الأولى بعد هذه السنوات كلّها . الرجل والمرأة يتناولان طعامَ الغداء في مطعمٍ ثمَّ يصعدان إلى غرفة في فندق . أبي الذي لم يتحمّل رؤيةَ فيلم في حياته شاهدَ مرّاتٍ الفيلم الفرنسي الذي كان حديث مدينتنا . البطلةُ أرملةٌ لم تقربْ

رجلاً منذ موتِ زوجها . ابتسمتُ في سرّي وحمدت ربي أنني لستُ . أسمعُ همساتِه « ماكنتُ أظنُّ أنّ هناك امرأةً ساخنةً إلى هذا الحد !» يتحسس جسدي الملتهب بالرغبة وأريده أن يتحسس جسدي الملتهب بالرغبة . أعرفُ أنني حارّةٌ وناعمةٌ « المرأة كائنٌ ذاتي لايملك القدرة على تجاوز الذات إلى المجتمع » يقترب أكثر والتصق به أكثر . نتداخلُ وإيقاعاتُ جسدينا ماتزالُ هادئةً « عملُ المرأة داخل البيتِ وخارجه يؤدي إلى إصابتها بالإرهاق » اللمسة تمتدُّ والقبلة تطولُ والمرّةُ الأولى تبدأ اجتياحاتها .

منذ سبعة أيامٍ وهو إلى جانبي . لم نكن وحدنا . المشاركون كثر في « تاريخ المرأة العربية والظروف التي أدّت إلى حرمانها من المشاركة في الإبداع الحضاري » . لقاءاتٌ عابرةٌ في مؤتمراتٍ عابرةٍ . لاحظتُ انتباهه منذ البداية ولم يكن هذا يعنيني . أعرفُ أنّ رغبتي

لاتبدأ إلاّ مني. لماذا هو الآن ، دون غيره ، إلى جانبي في هذا العناق المتوحّد ؟ السؤال الأزلي عند كلّ بداية . الجسد هو الذي يقرّر ؟ « ماطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وماهي العوامل التي تتحكم فيها ؟ » في زمنٍ مضى كان هناك مَنْ يعيدُ عليَّ حديثَ كيمياء الأجساد وتناغماتها . كنت ألتصقُ به وهو يصفُ دَهِشاً قدرتي على التغلغل . التغلغل في ماذا ؟ ربُّكَ وحده يعلم . كانت كلماتُهُ تبقى عالقةً في مصيدةِ رأسي وكنتُ أتلمّظُ بها في خلوتي « المرأة لاتطلب مباشرة ماتريدُ ولا تدافع عن معتقداتها ، وبخاصة إذا ماتطلّب منها هذا دحضَ آراء الآخرين وإظهارَ مقدراتها الفكرية » ماذا سيتجلى من قدراتي الآن وكيميائي العملية تتوهج في هذا الرجلِ ، في هذا السريرِ ، في هذه الغرفةِ ، في هذا الفندقِ ، في هذه المدينةِ ، في هذا البلدِ ، بعيداً عن حياتي ؟

كانوا جميعا يرقصون في قاعة الفندق . هذا الفندق الذي سيحتضن في الأسبوع القادم مؤتمراً لوزراء الداخلية العرب ، وقد يناقشون ، هم أيضاً ، حقي في القيلولة . جرى الإيقاع في دمي وتردّدتُ « ماتزال المرأة العربية خاضعة للضغوط الاجتماعية // نمرّ بفترة انتقالية حرجة تتيحُ للمرأة فرصاً ومسؤولياتٍ لم تؤهّل لعيشها وهي لذلك في حالة خوفٍ دائم » الرقصُ فرصةٌ أم مسؤولية ؟ مازلتُ أخافُ جسدي . أحمله عبئا على عبء أعرض وأستعرض بعضَ بعضِهِ بغوايةٍ وأخفي الباقي بحرص . ترددتُ وشدّني بإصرار . وقوفا تقابلنا . لاالمسه ولا يلمسني . إيقاعُ الجسد وحدَه يربط بيننا . يقتربُ بوجهه مني . أحسُّ الخطرَ فأضحكُ و أبتعد . شعري ينوسُ مع حركاتي وعيناه تتابعاني . في لحظة ما أمسك بيدي : لنخرجْ . تفلتُّ وتابعتُ الرقص ، تابعتُ اللعبَ . قالت الصديقة « أنتِ امرأةٌ طفلةٌ لاتذهبُ إلى نهايات أفكارها »

ماذا تعرفُ عن البداياتِ والنهاياتِ ؟ ماذا تعرفُ عن صباحاتٍ ومساءاتٍ وأجسادٍ ومذاقاتٍ وعطورٍ صبّتْ في بهائي ؟ إيقاعُ الجسدَيْن يربطُ بيننا الآن ولكنه ليسَ وحدَه، وعندما يقتربُ بوجهِهِ مني تبدأ شفتايَ في التدوّرِ البليل. القبلة لا تنتهي وأغمضُ عيني . أستعيدها غزيرَةً ، أستعيدُها واحدةً ، أستعيدُها ويسقطُ دمي المباح.

« كنا في السوق القديمة » ترفع الصديقة شعرها عن غنيمتها : طويلةُ المهوى والقرطُ فضةٌ مطعّمةٌ بأحجارٍ صغيرة توسوس عند كلّ حركة . كانت أذناي عاريتين كالعادة « لماذا لاتضعين العقودَ والأساورَ والخواتم ؟ » تسألني أختي وأتحايل في الإجابة « المرأة العربية ليست نسيجاً متشابهاً وهموم الريفية تختلفُ عن هموم .. » عندما كتبتُ أيام الجامعة قصيدةَ حبٍّ قالوا هذه كلماتُ امرأةٍ لا همَّ لها . هو أيضاً سائل ، وبحركة تمثيليةٍ

لم يناقشها المؤتمر أعلنتُ « لستُ بحاجة إلى إضافاتٍ أنثوية » فهم المكرَ وأجابت نظراتُهُ جوّالةً كقبلاتٍ متأنّيةٍ على الوجهِ ، على العينين ، على الشفة السفلى ، على الثديين وأهرب إلى حكايات الصديقة ومشترياتها . في العتمةِ الشفّافة تنتقلُ قبلاته متأنّيةً متأنيةً على المفضوح مني والسّري . أغمضُ عيني من جديد سابحةً خلفَ مويجاتي : تتعاقدُ في داخلي ، تتشابك ثمّ تتصاغرُ ، أبعدَ أبعدَ ، قبل أن تتفتح نقطة نور تنداح « لاتعبّر المرأة العربية عن تجاربها خوفا من أحكام المجتمع الأخلاقية التي لا تفصل بين الحياة الخاصّة والعمل الفنّي » لستُ بحاجة أن افتحَ عينيَّ كي أراه. أعرفُ أنّه هنا ، مختلطاً برائحةِ اللذّة.

نوفمبر ١٩٩١.

من لم يمت

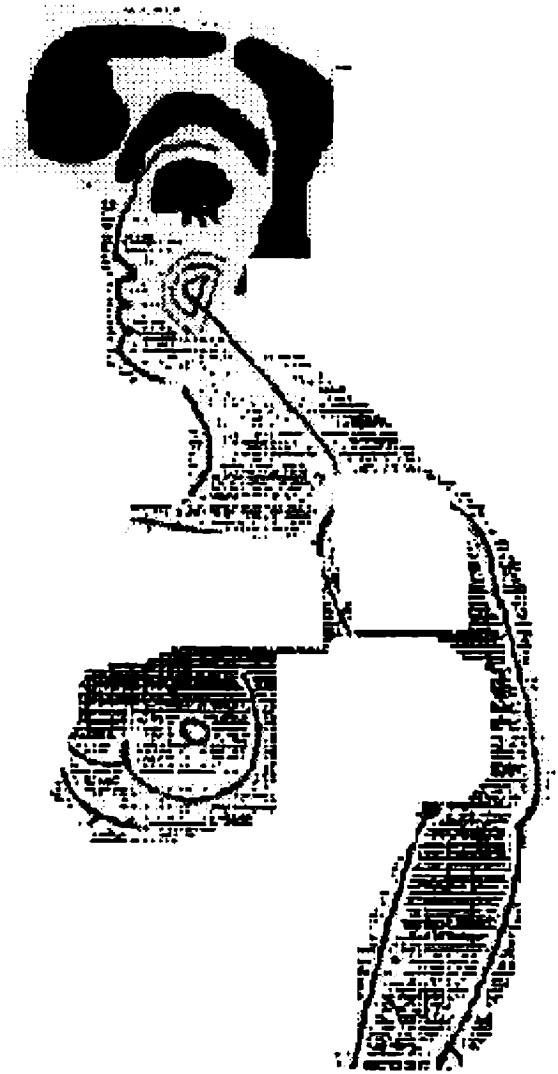

بالأمس مات أخي .

من بعده انقسم الناسُ في رأسي : من يموتُ بالسرطان ومنْ يموتُ بغيره . وضعتُ اسمي في أوّلِ القائمة الأولى . في أحلامي ، كان أخي يأتيني ، يُمسِكُ بيدي ليقولَ لي إني ساموتُ بعده بشهور . عندما كنتُ أفتحُ عينيَّ كنتُ أرى سرطاني يبزغُ شمساً محرقةً تجرّني وراءها .

بالأمس مات أخي .

أنّبني أبي « أخوكِ مدفونٌ إلى جانبكِ ولا تزورين قبرَهُ ؟ أتيتُ من آخر الدنيا لأطمئنّ على أحواله . أنتِ هنا ولا تكلفين نفسك خمسَ دقائق . القبر مهملٌ وكأنّ صاحبه لا أهل له . كنتُ أعرفُ دائما أنكِ بلا قلبٍ . » الجملةُ الاستفهاميةُ الطويلةُ التي بدأت تنكتبُ في رأسي امّحتْ وسقطتْ وحدَها . لا قلبَ لي ؟ لا قبرَ لي ؟ غداً ، عندما سأموت سأطلب أن تحرق جثّتي ، ذرّاً للرماد .

بالأمس مات أخي .

من بين دموعه نصّبَ أبي نفسَه وريثاً وحيداً لغنيمةِ سبعة عشر عاماً من احتراقِ أخي في البلد الصحراوي « الأب يحجب بقيةَ الإخوةِ في حال وفاةِ .. »

طبَّقَ أحكامَ الشريعةِ ، شارحاً حيثياتِ الفتوى وسطَ تهليل الجميع . أختي ماكانتْ بحاجةٍ إلى دموعها كي تختارَ النصَّ الذي سيُقرأُ للصلاة على جثمان أخي ، في الكنيسةِ القريبةِ من المستشفى ، بالحماسةِ نفسِها وبالتذوّقِ نفسه لقصيدةٍ تشرحُها لتلميذاتها « الربُّ راعيَّ فلا يعوزني شيء ..» استشارتني . « في مراعٍ خصبةٍ يقيلني ..» تتلمّظُ بالكلمات « إني ولو سكنتُ في وادي ظلال الموت ..» كنتُ أنظرُ إليها وأهزُّ رأسي .

بالأمس مات أخي .

عادَ من المدينةِ الصحراوية مريضاً . نزح إليها للعمل في الثالثة والعشرين وعاد منها في الأربعين ، محقوناً بالقهر وبالسرطان ، ليموت في هذا البلد الغريب . استأجر له أبي حقّاً في قبرٍ لمدةِ خمسةِ أعوامٍ ، قابلة

للتجديد ، في مقبرة باريسية « الأمكنة قليلة » شرح موظفُ مكتب دفن الموتى « عندما تنتهي مدّته ننزلُ فوقه ميتاً آخر . هذا إذا لم يُجدَّد العقد قبْلٌ ..» كان يتكلّم وكنتُ أدور بين جثث الموتى المتراكبةِ طبقاتٍ ، المتخالطةِ عظاماً وجماجمَ ، أللمُ بقايا أخي .

بالأمس مات أخي .

في الكنيسة ، كانت أمي ترتدي السواد . اخواتي أيضاً . حتى أنا . ابي كان معنا . قال إنّ علينا أن نفعلَ هذا من أجلِ أمّي وإلا لأصيبتْ بذبحة قلبية . فكرتُ في انها لم تُصَبْ بأذى عندما ورثه بالأمس مسلماً . فهمتُ خطورةَ جملتي . بلعتها . كعادتي . وهززتُ راسي . كنا سبعة فقط ، بعيداً عن أعين الغرباء ، في مواجهة كلماتِ القسيس التي اختارتها اختي بعدَ ان

دفعت مقدّما ثمن القدّاس الجنائزي . رمى كلٌّ منا وردة فوقَ التابوت الخشبي ، وخرجنا واحداً بعد الآخر . هل كان ذلك في المقبرة أم في الكنيسة؟

كان ذلك في الأوّل من نيسان ولم يكن موته كذبةً . كان قد مات من قبلُ ، كلّ يومٍ ، خلال ستة أشهر. كم يوماً في الستة أشهر ؟ مائة وثمانونَ يوماً ؟ مائةٌ وثمانون ميتة ؟ منذ أن نصبَ الجراحُ مقصلته أمام عينيٍّ مات أخي . الميتات بعدها كانت إعادة تمثيلٍ للجريمة . مِنْ يومها وأنا أمسكُ جثة أخي بيدي ، أجرجرها وراء حياتي.

بالأمس مات أخي .

عندما دخلتُ البيتَ رأيتهم جميعا متحلقين حول المائدة ، تغطيها الأوراق ودفاتر الحسابات المصرفية

يجمعونَ ويطرحونَ ويقسمونَ ، برعاية أبي ، الوريث الأوحد . الأرقام تتطاير وتحطُّ عليَّ غباراً . كان أخي مرمياً في سريره ، في ذلك المستشفى الباريسي . ذوى وضمرَ وتقلّصَ وانكمشَ ونامَ تحت تأثير المورفين . عندما دخلتُ الغرفةَ سكتوا لحظاتٍ ، ثمَّ عادت الأرقام إلى التطاير . خطَرَ لي أني رأيت مشهدا مشابها في فيلم إيطالي وأني ضحكتُ عميقاً . هل كنتُ أبتسمُ عندما أدرتُ ظهري خارجةً ، نافضةً عني غبارهم ؟

بالأمس مات أخي .

« زوجك مصابٌ بسرطانٍ عام .. » قاطعتهُ « إنه أخي . » لم تتبدّل لهجةُ الجرّاح « أخوك مصابٌ بسرطان عام . لن يعيش أكثر من ستة أشهر » لم أسمع صوتي المصْفر يطلب إيضاحاتٍ حول إمكانيات العلاج

بالأشعة والعلاج بالكيمياء والعلاج . أرى الجرّاح يهزُّ رأسه بصرامة جنرال « لم يبق إلا الصلاة » أنظر إليه وأهزّ رأسي . من سيفعلها ؟ أنا ؟

بالأمس مات أخي .

كانوا حوله يبكون . ينظرون إلى عينيّ اليابستين ويبكون . أنا أنظرُ إلى عيونهم الغارقة وتجفُّ عيناي أكثر . الجراح الذي فتح الرأسَ لاستئصال الورم الدماغي اكتشف سرّ أخي « السرطان منتشرٌ في الجسم كله. هذا ورمٌ مرسلٌ : ميتاستاز » . في المعجم بحثت عن معنى الكلمة : « كتلةٌ من الخلايا السرطانية تنتج عن انتشارِ المرض ، عن طريق الدمِ أو الغدد ، نازحا عن بؤرته الأصلية .» كان أخي ، في كلّ عامٍ ، يقرّرُ أن يترك عمله في ذلك البلد الصحراوي . في العام السابع عشر

انفجرَ قرارُه في دمِه ونزحَ إلى دماغه . كان عليٌّ أن أصدّق المعجم . كان عليّ أن أصدّق تاريخ أخي .

بالأمس مات أخي .

من بعده ماتَ أبي . مرضت أمي . تبعثرَ إخوتي في مدن بعيدة . لم أرَ أحداً منهم .

بالأمس مرّتْ عشرة أعوامٍ على موت أخي :

ماعادَ يأتيني في أحلامي . ماعادَ يمسكُ بيدي ليقولَ لي .

آذار ١٩٩٣

بين عشرة جدران

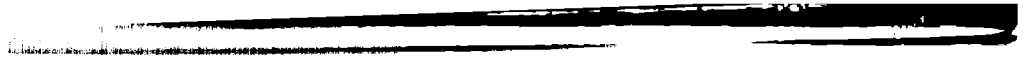

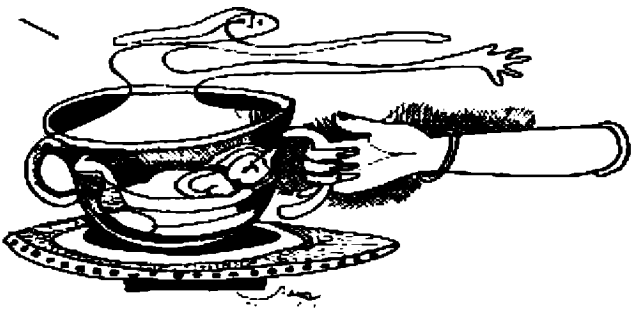

بدأت السنة بكذبة ، هل تنتهي بكذبة ؟ كنتُ هادئةً صامتةً مفتوحةَ العينينِ أنظرُ إليه هائجا يخور « تكذبين . لم تكوني في عملك . اتصلت بكِ ولَمْ . » أهزُّ كتفي « وَلِمَ لا ؟ أنتَ أيضاً تكذب . هذا واجبٌ وإلا فكيف يمكن أن تُعاشَ الخيانةُ الزوجية ؟ » أنظرُ إليه مفتوحة العينين وأستحضرُ هدوءاً . أعرفُ أنّ أعصابي ستتوتّر تدريجياً . هناك علاقةٌ طرديّةٌ بين صراخِه وتوتري . تتصاعدُ حتى الانفجار النهائي . سافرَ وحدَهُ. الرحلة المقررةُ لثلاثةٍ إلى المدينة السياحية على الأطلسي تبخّرتْ مع خبطة البابِ

خلفَهُ. عنفُ أمواجِ المحيطِ امتصَّ ثورته قالَ . في أعينِ الآخرين سافرنا معاً . صورةُ السعادةِ الزوجيةِ ضروريةٌ وسافرنا معاً .عنفُ أمواج المحيطِ امتصَّ ثورتَهُ قالَ . ثورتي امتصصتها وحدي مع الطفلِ بين عشرة جدرانٍ ولم أقلْ . عيدُ رأس السنةِ امتصصتهُ وحدي مع الطفل بين عشرة جدرانٍ ولم أقلْ . في البدء كان الفاليوم . بعدَ كلّ معركة يخرج هو وأبقى أنا . قطراتٌ من الفاليوم في كأسِ ماء . مايكفي للنوم فقط . مايكفي لإبعادِ القرارات . أفتحُ عينيَّ وطعمُ الفاليوم في دمي ورائحةُ الفاليوم في دمي . أفتح عينيَّ وأحقدُ عليهِ وعلى نفسي وعلى استمرارنا معاً . لا . في البدء كان البكاءُ والنومُ على الكنبةِ وطعمُ الدمع . كان الوجه المرمدُّ والصوتُ المكسورُ والوجعُ الذي لايحتملُ . بعدَها جاء اكتشافُ الفاليوم . مالا استطيعُهُ أنا يستطيعُهُ . قطراتٌ ويختفي كلُّ شيءٍ حتى يومٍ آخرَ وأستيقظُ متورّمة العينين والقلبِ واللسانِ . أرتشفُ

الشايَ الساخِنَ على مهلٍ . لم أعتدْ برغمِ كلّ هذه السنوات في مدينة المقاهي أن أكونَ وحدي خلفَ طاولةٍ في مقهى . طاولةٍ رخاميّة بيضاء وفنجان شايٍ أبيض عليه رأسُ امرأةٍ . تتراكبُ رؤوسُ الزبائن المنتشرين في العمق على مرايا الجدران . أنا في الصفِّ الأول ، خلفَ الزجاج مباشرة ، أتفرّج على الحياة . بدايةُ عام جديد ؟ خراء . ماذا تغيّر ؟ « تكشفْتِ على حقيقتك بعدَ مجيء الطفل » . مِنْ قبلُ كنا معاً ، يدي في يدِكَ والطرقاتُ تنفتِحُ أمامناكالأزهار . سافَرَ وحدَهُ وبقيتُ مع الطفلِ بين عشرة جدرانٍ ولم أقل . أمامَ الآخرين سافرنا معاً . بدايةُ عامٍ جديدٍ ؟ عليَّ أن أتعلّمَ الحياة وحدي . في البدايةِ كان يخرجُ وأبقى . صرتُ أخرجُ ويبقى . هكذا تتغيرُ القوانين . يخرجُ ويعودُ . أخرجُ وأعود . علينا أن نؤرّخَ للحياة الزوجية بمشاجراتها . كلُّ مشاجرةٍ درجةٌ من درجاتِ السلّم ، نصعدُ أو نهبطُ ، لا فرقَ . كلُّ مشاجرةٍ توسّعُ

الدائرة أكثر . كلّ مشاجرةٍ تبعدُ الحدودَ أمتاراً. لاتَحْتَلُّ ولا تُحْتَلُّ . الأرضُ مشاعٌ . الفاليوم صارَ عادةً قديمةً والحلولُ الخارجيةُ تعددت . أرتشف الشايَ الساخنَ على مهلٍ وأنظرُ إلى العابرين من وراء الزجاج . أمضيتُ حياتي أتفرّج . عندما كنتُ صغيرةً هناك كانت أختي تمضي عطلاتها خلف نافذة مغلقة تتفرّجُ على العالم عبر فتحاتها . كنتُ أقولُ لنفسي « لابدّ أنها مجنونة . ماالذي يمنعها من الخروج ؟» عندما غادرتْ البيتَ كنتُ قد كبرتُ وورثتُ مكانها خلفَ النافذة المغلقة أتفرج على العالم . ليس هناك من يمنعني من الخروج ولكنَّ لتلك الساعات المسروقةِ خلف نافذة مغلقة طعماً . كلُّ ماسمعتُ ومَنْ . كلُّ مارأيتُ ومنْ . الشايُ الساخنُ يجري في عروقي والدفء ينتقل من الفنجان الأبيضِ إلى كفيَّ اللتين تغطيانِ رأسَ المرأة . عليَّ أن أتعلّمَ الحياة من جديدٍ ، بعيداً عن صورة السعادة الزوجية وكذبةِ السعادة الزوجية . كم مرّة قررتُ

أن أرحل ؟ أن أترك كلَّ شيءٍ ورائي وأرحل . قالت الصديقة « التنازلات ضرورية . اسأليني أنا » ماحدود التنازلات وعمَّ يتنازلون ؟ أنا التي لاأحتملُ ؟ الآخرُ الذي لايحتملُ ؟ الحياة المشتركةُ التي لاتُحْتَمَلُ ؟ الأسباب اليوميةُ والأسبابُ التاريخية ؟ إن لم تكن هذه فتلك ؟ لماذا نحنُ معاً إذن ؟ من أجلِ الطفل . يجيبك الجميع ككورسٍ إغريقي يتنبأُ بالكارثة ويعلق على الأحداث شامتاً أوّلاً بأوّل . عندما استقبلت مرة صديقاً في غيابه أعلنَ الحربَ . أن أكون مضطرة لتبريرِ تصرّفٍ طبيعي مثل هذا ؟ خراء . ماهي هذه الحياة التي تجبركَ أن تناقش موقفاً أو ضحكةً أو كلمةً وكأنكَ في محكمةٍ ميدانيةٍ ؟ دموعي بلعتها بحقد . التنازلات ليست لي . ابتسمتُ للجارة العجوز وكلبها هي التي كانت تسمعُ صراخي منذ لحظات . نزلتُ الدرج متقافزةً . عليَّ ألا أدع غضبهُ يعكر يومي ويرمد وجهي . عليَّ أن أتعلم الاستقلال النفسي . « غبية » صرخَ . « طبعاً

والدليلُ على غبائي هو استمراري معك . » أغلقتُ البابَ خلفي . صوتُ بكاء الطفلِ وأنا أبتلعُ دموعي بحقدٍ . عليَّ أن أتعلّمَ الحياة وحدي . عامٌ جديدٌ ؟ انهياراتٌ جديدةٌ . انهياراتٌ صغيرةٌ بانتظارِ الزلزالِ النهائي و « وداعاً ياحبي . لنبقَ أصدقاء » . ماكان حباً عاصفاً تحوّلَ إلى زواج عاصف . فنجان الشاي فارغٌ . دفءُ فنجانِ الشاي صار ماضياً . أقلب الصحيفةَ متشاغلةً وأنظرُ إلى العابرين من وراء الزجاج . كان أحدُ الأصدقاء يسألُ دائماً « إلى أينَ يذهبُ الناس ؟ » وكنا نضحكُ لسؤاله في كلِّ مرة . بعدَ كلِّ خناقة كان أحدنا ينامُ على الكنبة . بعدَ كلِّ خناقةٍ كنتُ أحسُّني أكثر ابتعاداً . أنتَ تعودُ إلى قواعدكَ بسرعةٍ . تبتسمُ . تضعُ ذراعكَ على كتفي . أنا بحاجة إلى زمنٍ أطولَ كي أعتادَ التطبيع . يخطرُ لي أنَّ هذه التراكماتِ الحاقدةَ هي التي ستجدُ الحلَّ . « تكشّفَ طبعُكِ بعدَ مجيء الطفل » يُعيدُها ببراءة هو الذي يعرفُني مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ .

قالَ لي « ب » منذ سنوات إنّه ماعادَ يريدُ أن يتزوّجني . ضحكتُ عالياً . القراران أخذهما وحدَه دون استشارتي . « ب » كان يُحِبُّني . كان صديقا لنا معاً . كان يحبني وكنتُ أحبّكَ . « لِمَ غيرت رأيكَ ؟ » سألتهُ بفضولٍ « اكتشفتُ أنّكِ خطيرةٌ . معكِ لن أعرفَ الراحةَ » أجابَ بجدية . خطورتي كنتُ أحدسها وأحومُ حولها . كمتُ أحاولُ تلمسَ وجهها وجاءَ من يقولها لي بانياً عليها مقدماتٍ ونتائجَ . فرحتُ وحكيتُ الحكاية لكلّ من حولي . حكيتها لك وضحكنا معاً من الصديق المدجّنْ . لماذا أريدُ الآنَ تدجينه ؟ لماذا يريدُ الآنَ تدجيني ؟ هل التدجينُ ضروريٌّ للحياةِ الزوجية ؟ لدوامها على الأقل ؟ سافرَ وحدَه وبقيتُ وحدي مع الطفلِ بين عشرة جدرانٍ ولم أقُلْ . عنفُ أمواج المحيط امتصّ ثورته قالَ . عادَ مع حكاية عن سائحتين أميركيتين صادفهما في الفندق « هل تصدقينني ؟ » لماذا يظنُّ نفسهُ مضطراً لقولِ نصفِ الحقيقةِ معي ؟ كان في الحكاية ثغراتٌ واضحةٌ

وكان عليَّ أن أكتم عقلي البوليسي المتحفّز دائماً . عنفُ أمواج المحيط امتصَّ ثورتهُ ؟ عندما أمسكني برغبة كادَ قلبي يتفجّرُ وصورة غامضةٌ لفتاتينِ تتحركان حولنا ببطءٍ وأنا أتفرجُ ويتحرّكُ فوقي وصورةٌ غامضة ببطءٍ . السنة بدأت بكذبةٍ ، هل تنتهي بكذبةٍ ؟ قرارُ الرحيلِ سيأتي وحدهُ . فنجاني فارغٌ ورأسُ المرأةِ المقطوعُ يطفو على زجاجه الأبيض . تبخّرت حرارته من دمي . بردانة . أنظرُ إلى ساعتي . تأخرتُ وعليَّ أن أعود . في البدء تكونُ القرارات الحاسمة . في البدء يكونُ الكلُّ شيءٍ أو لا شيء . التنازلات التنازلات ، قالت الصديقة . تنفجرُ القراراتُ قنبلةً دخانيةً لا تتركُ إلا الرائحةَ الكريهةَ تسكنُ تعبيرَ الوجهِ ومذاقَ الفم . النضج ليسَ الهزيمة فقط . إنّهُ أكثر ، التسليمُ بها . بردانةٌ وأريدُ أن أبكي . ارتدي معطفي وأسمعُ صوتي « فنجانُ شايٍ آخرَ من فضلك » .

نوفمبر ١٩٩٣

الزجـــاج

كلصّةٍ فتحتُ الباب وتسللتُ إلى الغرفة . حقيبتي سبقتني . أراها في الظلمة ممددة جثّةً سوداء . أفتحها وأقفُ قبالتها : عليَّ أن أُبدلَ ثيابي قبل حفل الافتتاح . إياكِ . قبلَ أن أركب الطائرة حذروني . إياكِ . الفندقُ محشوٌّ بالكاميرات والميكروفونات . آخرُ صيحات التكنولوجيا . إياكِ . صوتٌ وصورةٌ خلال أربعٍ وعشرين ساعة . إياكِ . كلّ حركةٍ . كلُّ همسةٍ . كلُّ . إياكِ . كنتُ أضحك وأنا أستمع إلى التحذيراتِ والحكاياتِ المرافقة . كنتُ أضحكُ ولكنني الآنَ أقفُ مترددّةً أمامَ الحقيبةِ

المفتوحة . أمنحُ نفسي وقتاً للتفكير. أُشعلُ التلفزيون وأجلسُ على حافّةِ السرير بكاملِ ثيابي بوضعيةِ استعدادٍ نظاميةٍ. ماذا يمكن لي أن أفعل ؟ صوتٌ وصورةٌ ؟ هناك من يراني ويسمعُ أنفاسي الآن في هذه اللحظةِ وأنا وحدي في غرفة مغلقة . أتفرّجُ على الشاشة الصغيرةأمامي ويراني على شاشته الصغيرة أتفرّجُ . حملت ثيابي ودخلتُ الحمّام . بدأتُ أخلع وتوقفتُ . الحمّامُ مكانٌ استراتيجيٌ من الدرجةِ الأولى. غبيةٌ فعلاً . كلُّ ماقرأتُ من القصصِ البوليسية ورأيتُ من أفلام الجاسوسية لم يفدني مثقالَ شعرةٍ. أطفأتُ النورَ . لبستُ كالعميان . لن يروا إلا شبحاً . هذا اسمهُ خيالُ الظلّ . ربما تكون لديهم كاميراتٌ بأشعة تحتَ الحمراء . تلك التي تصوّرُ حتى في قلبِ العتمة . ضحكتُ بصوتٍ عالٍ وبلعتُ ضحكتي من منتصفها . غادرتُ الغرفةَ وأنا أتساءلُ إن كان عليَّ أن أرفع يدي تحيّةً لهم.

نعتاد كلَّ شيء ؟ متى بدأتُ أتصرّفُ في الغرفةِ وكأنّي لاأراهم وكأنّي لااسمعهم ؟ متى أقلعت عن التحديق في الجدران والزوايا واللوحات وقطع الأثاث ؟ متى بدأتُ أنامُ وأفيقُ وألبسُ وأخلعُ وعيونهم وآذانهم معي؟ ليتفرّجوا . لايمكنُ لي أن أمضي حياتي بوضعية استعدادٍ . نعتادُ كلَّ شيءٍ ؟

صارَ يخطرُ لي أحياناً أن أغمزَ بعيني هذا المتفرّجَ السرّيَّ ، أن أُخرج له لساني ، أن أرسمَ حركةً ما بإصبعي ، أن أتحرّشَ به . ماذا يستطيعُ أن يفعلَ من جحره ؟ ليتفرّج حتّى يفقع . ليصوروا حتى يفقعوا جميعاً. أنا عابرة ولا قدرة لهم علي . لوكانت حياتي هنا لكان للحكاية كلماتٌ مختلفة . أنا عابرة هنا . أربع وعشرون ساعة قالوا . كنتُ أتخيّلُ موظفاً مواظباً ملتصقاً بكرسي يأكلُ سندويشاتٍ ويتفرّج عليّ حتى نهاية الدوام

الرسمي . يسلمّني إلى آخر يسلّمني إلى آخر . لماذا أتصورهم رجالاً ؟ قد تكونُ امرأة تلك التي تمضي ساعاتِ عملها في مراقبتي . لا . المهمات الصعبةُ لهم فقط . السؤالُ الآن : ماذا سيفعلونَ بأفلامي ؟ ماذا لو طلبتُها منهم للذكرى والتاريخ « زيارةُ مدينة .. عام .. بمناسبة » أريدُ أن أضحكَ ولكنَّ سخونةً بدأتْ تضربُ في رأسي . ماذا لو اقترحتُ في الندوة الفكرية مناقشة موضوع « الشفافية اليومية في الثقافة العربية » ؟ من سيضحك ؟ أريدُ أن أضحكَ ولكن سخونة بدأت تضربُ في رأسي .

بالأمس عندما سهرنا في الغرفةِ التي يُشغلها « ف » كنا كثرةً . تحدثنا . ضحكنا . غنّينا . رقصنا . الكؤوسُ تدورُ ملأى وتعودُ فارغة . النغماتُ تتعالى والضحكات أكثر انطلاقا . العيون المزروعةُ بيننا ترانا . الآذانُ المزروعةُ بيننا تسمعنا . دعوناها لمشاركتنا .

حكينا لها آخرَ النكات البذيئة . توجهنا إليها بلغات الأرضِ كلها : لابدَّ من تنشيطِ قسم الترجمة . ضحكنا أكثر . لعلَّ جنوننا ريكون معديا . كنا نعرفُ أننا عابرون في هذا المكان المعادي وكنا نملكُ شجاعة العابرين . ماذا يستطيعون ضدّنا ؟ ماذا يستطيعون ضدَّ براءتنا ؟ لي خفّة العابر وراحةُ باله . هناك ، في مدينةٍ أخرى لم أكن عابرة . منذ متى لم أرَ وجوهاً يسكنها الخوف ؟ هناكَ لم أكنْ عابرةً . حملتُ حقيبتي ورحلتُ . رائحةٌ أعرفها تتسربُ من بابِ الفندقِ تطيرُ في سماءِ المدينة وتمشي في شوارعها وتنوء على الناس وعلينا نحن العابرين . ماذا أفعلُ في هذا المكان المعادي ؟ منذُ متى فقدتُ عادةَ أنْ أُراقِبَ نفسي أن أنظرَ حولي بحذرٍ أن أهمسَ في أذنٍ أن أبلغَ كلماتٍ ؟ ماذا أفعلُ في هذا المكان المعادي ؟ أحملُ حقيبتي وأرحلُ قبلَ نهاية الندوة ؟ سخونةٌ بدأت تضربُ في رأسي . سخونة قفصٍ زجاجيٍّ مخبوءٍ في كهفٍ .

سأتركُ لهم الغرفةَ فارغةً على شاشاتهمُ الصغيرة .
سأهربُ إلى صالة الفندق محتمية بالآخرين . سخونةٌ
تضربُ في رأسي . منذ متى لمْ أتنفّسُ تلك الرائحة ؟

أنتظر المصعدَ وحدي . أتطلّعُ حولي
مستطلعةً . صار البحث عن الأجهزةِ الخفيّةِ فعلاً
انعكاسيّاً: المصعدُ مكان استراتيجي . السلالمُ والأروقةُ.
أنتظرُ المصعدَ وحدي وسخونةٌ تضربُ . سخونة قفصٍ
زجاجي أتحرّكُ في داخله كفأرة مختبرٍ على زجاج شاشةٍ
صغيرة . أنتظرُ وسخونةٌ . أحملُ حقيبتي وأرحلُ ؟ انفتحَ
البابُ فجأةً . أطلَّ وجهٌ . تقاطعتْ كلماتنا : أنتِ هنا أنتَ
هنا؟ الدهشة تركتْ مكانها لذراعين تطوّقاني. الدهشةُ
تركتْ مكانها لقبلةٍ لا تنتهي . لسانٌ يلوبُ في فمي وملحُ
بحارٍ بعيدة جاء إلى لساني مع الرائحةِ والصرخات
المخنوقةِ والهمساتِ ونظراتِ الحذرِ وتعبيرِ الخوف . ملحُ

بحارٍ بعيدةٍ جاء مع شظايا أقفاصٍ زجاجية وشاشاتٍ زجاجية . ملحُ بحارٍ بعيدةٍ جاء مع شمسٍ ورغبةٍ تلمعُ في شمسٍ . إياكِ . أربعٌ وعشرون ساعة . صوتٌ وصورةٌ . كلُّ حركةٍ . كلُّ همسةٍ . كلُّ . القبلة لاتنتهي ولاأريدها أن تنتهي. متعانقين أعودُ إلى غرفتي . متعانقيْنِ أفتحُ البابَ . متعانقين أغلقُ . الجدرانُ والزوايا واللوحاتُ وقطعُ الأثاثِ هنا . أبتعدُ عنه . أشعل الأضواءَ كلّها واحداً بعدَ الآخر . أشعلها ضوءاً ضوءاً قبلَ أن أعودَ إلى قبلاته مالحةً مالحةً

نوفمبر ١٩٩٣

كنتُ أُشبهكِ

١ـ جئتُ على مهلٍ

تساقطوا أمامك وكنتُ وحدي العصيّةَ . كنتُ أشبهكِ . سلّموا قيادهم وكنتِ تعلمين أنّي لَنْ أُروّضَ . كنتُ أشبهكِ . لو أحببتني يوماً . لو صدقتُ أنكِ أحببتني يوما لفعلتُ مثلهم ؟ كنتُ أشبهكِ وما كان يمكنُ لي أنْ أُخدَعَ . في تلك الغرفة في بيتنا الدمشقي كنا وحدنا وكنتُ أشبهكِ . كنتُ بعيدةً وجئتُ على مهل . كنا وحدنا وكان قد مات ودفنوه . أرسلته معهم ورقدتِ في سريرك .

يتحدثون عن حزنكِ الذي أقعدكِ ونعرفُ معاً أنَّهُ التعبُ الذي دام عمرا وانتهى . نعرفُ معاً أنّها راحة الخلاص .

كنتُ أشبهكِ وكنتِ عصيّةً . كنا وحدنا وجئتُ على مهلٍ من آخر الدنيا أبحثُ عنكِ . ماذا قلت لي في تلك الغرفة في بيتنا الدمشقي ؟ كنا وحدنا وصوتانا يتخالطان . كان قد مات قبلَكِ في بيتنا الدمشقي . كان قد ماتَ وأرسلتِه ليُدفَنَ بعيداً عنكِ وجئتُ إليك على مهلٍ . كنتُ أشبهكِ وكنتِ تعرفين . ماذا قلتِ لي كي أراك تنزلقين أمامي على أرضِ الغرفة في بيتنا الدمشقي ؟ كنا وحدنا وكان قد مات قبلك هو الذي لم يمرضْ يوماً . كم تمنّيتِ موته وكم كنتُ أحبك . كنا وحدنا ولن يكونَ بعدَ الآنِ ممسحةٌ لكِ . ماذا قلتِ لي في غرفة بيتنا الدمشقي ونحنُ وحدنا ؟ كانوا قد عادوا من دفنِهِ والتفوا حولكِ . كان قد ماتَ ودفنتِهِ بعيداً دونَ أن أراه . جئتُ من آخر الدنيا ولم أتعجّلْ . أرسلتِهِ ليُدفَنَ في مدينتِهِ وأنت ممددة على فراشك مستسلمةً للخلاص .

دفنوه وعـادوا والتفّوا حولك وكنتُ عصيّةً . كنتُ أشبهك .
مـاذا قلت لـي وتطـــايرت حكايتي أمـام عيني ؟ حكايتنا
معاً ؟ مـاذا قلتِ لي وانفـجرتُ وانزلقتِ تتوجعين ولم أصـغِ
إليكِ ؟ فـي تلك الغـرفـة في بـيتنا الدمـشـقي كنا وحـــدنا
وتكوّمت علـى الأرض أمـامي ولم أصـــدق وجـعك . كنتُ
أشبهكِ .عـشـتُ طفولتي على وقع نبضـــاتِ قلبكِ المتعب .
كانوا يركضـون إليك وأركضُ معهم . فـي كلّ مـرّة تضعين
يدكِ على قلبـك وأركضُ مـعهـــم . نبضـاتُ قلبـك المتعبِ .
أسطورة قلبك المتـعبِ ونبـضك المتـعب . واحــد . اثنان .
ثلاثة . هـاهوذا يتـوقّفُ ليُـعـاوِدَ منْ جـديد . كمْ مـرّة توقّفَ
ليعاودَ من جديد ؟ كـانوا يركضـون وأركضُ معهم فـي كلّ
مرة تضـعين يدَكِ على قلبكِ وكنتُ عصـيّةً . كنتُ أشـبهكِ
ومـا عـدتُ أصدّقُ نبضـكِ . كنتُ صـغيرةً ومـاعدتُ أصـدقُ
قلبَكِ . واحـد . اثنان . ثلاثة . كنتُ كبـيرةً ولم أصـدقكِ في
تلك الغرفـة في بيتنا الدمشقي . متى بدأتُ أنظر إليكِ بحذرٍ

خلف كلماتي الخائفة عليك وخطواتي الراكضة نحوكِ ؟
كم كنتُ أحبك !في تلك الغرفةِ توجعت أمامي .كنتُ صغيرةً . كنتُ كبيرةً . توجعت أمامي ولم أصدّقكِ .كان قد ماتَ ودفنتِهِ على عجلٍ . ماذا قلت لي وتكوّمت على الأرض وركضوا إليك . ينظرون إليَّ ويلملمونك . ماذا قلتِ لي عندما كنّا وحدنا وركضوا إليكِ يلملمونَ أجزاءكِ وينظرونَ إليَّ بريبةٍ ؟ ماذا قلتِ لي ؟ بقيتُ وحدي ولملموا أشلاءكِ . نقلوكِ بعيداً وبقيتُ وحدي في غرفة بيتنا الدمشقي أتنفسُ . ماذا قلتِ لي حتى انفجرتُ ولملموكِ وبقيتُ وحدي الملمُ أشلائي . كنا معاً . أخذوكِ بعيداً وبقيتُ وحدي أتنفّسُ . لم أكن أبكيكِ عندما أخذوك بعيداً عني في غرفةِ بيتنا الدمشقي . ماذا قلتِ لي ؟ مالعبنا معهُ سنوات عمري وأنا أشبهكِ ؟ في تلك الغرفة كنا وحدنا وكنتُ عصيَّةً . الكذبة التي ازدردوها بِنَهَمٍ بقيتْ على رأسِ لساني . بقيتْ على رأسِ حياتي . أتذوّقها ولا

أبتلعها. تنزُّ في الموتَ ولا أبتلعها . كنا وحدنا وقلتِ لي وكان عليَّ أن أبلعَ سُمَّكِ دفعةً واحدةً . تكومتِ أمامي والموكِ بعيداً ونظروا إليَّ بريبة . كان عليَّ أن أرحلَ مرّة أخرى عن بيتنا الدمشقي . ماذا قلتِ لي في تلك الغرفة كي أنفصلَ عنكِ ؟ للموكِ وبقيتُ وكان عليَّ أن أرحلْ .كان قد ماتَ ودفنوهُ بعيداً وعادوا والتفوا حولك وقلتِ لي وكنتُ عصيةً . قلتِ لي وركضوا إليكِ واتهموني . قلتِ لي وللموا أجزاءك واتهموني . قلتِ لي ومدّدوكِ على سرير العمليات واتهموني . كانَ عليَّ أنْ أرحلَ . ماذا قلتِ لهم ؟ ماذا قلتِ لي في تلك الغرفةِ في بيتنا الدمشقي ؟ ماذا قلتِ لي كي أدفعَكِ بيدي بعنفٍ بعيداً عني بعيداً عن حياتي

٢- أنا الكسيرةُ القلب .

كنتُ أشبهكِ . كانوا يقولونها وأصدّقُها بزهوٍ. عندما قالتْ جارتُنا يوماً إنني أُشبهُ أبي نظرتُ إليهِ وأردتُ أن أموتَ . كنتِ تردّدين أني المختارةُ من بين أولادكِ وأصدّقُكِ . كنتُ أعودُ من منتصفِ طريقي إلى المدرسة كي أستعيدَ قبلتكِ التي نسيتُ وأتشمّمَ رائحةَ إبطكِ . كان إخوتي يضحكون ولكننا كنّا نعلم معاً أنهُ لايمكنُ لي أن أبدأ نهاري من دونِ . بالأمسِ حلمتُ بكِ . مرَّ وقتٌ طويلٌ

ماعدتُ أراك في نومي وأبكي . أراكِ في نومي تفعلينَ بي مافعلتِ وأبكي . أراكِ في نومي تقولينَ ماقلتِ وأبكي . بالأمسِ حلمتُ بكِ . لم أبكِ . كان حلماً هادئاً . نسيتُ تفاصيلهُ . عندما صحوتُ تذكرتُ فقط أننا كنا معاً ولم يكن الدمعُ بيننا . كنّا معا كما في أيامٍ قديمةٍ . هل تكونين قد متِّ ولذلك نتصالحُ الآن ؟ لاأريدك أن تموتي قبل أن تدركي عمقَ الجرح الذي تعلمتُ أن أتناساه . ينزُّ في الموتَ و أتناساه . جرحٌ خبأته بحرصٍ كيلا تريهِ حتى في لحظة ضعفٍ . كنتِ تدهشين : هل من المعقول أن أنقلب عليكِ أنا التي ؟ كنتُ أشبهكِ وما كان يمكنُ لي أن أُخدعَ . أنا ، بعيني حبي المفتوحتين ، ماكان يُمكن لي أن أُخدَعَ . كانَ عليَّ أن أُدافعَ عن نفسي في وجهِ هذا الحبِّ العاثر . كان عليَّ أن أُنْقِذَ نفسي من أوّلِ خيبة عشق . لم أصدّق بعدها أحداً قال لي أحبكِ . حبي الأوّل كان أنتِ وكان عليَّ ألا أكرّر عثرة الحبِّ من طرفٍ واحدٍ . كنتُ أشبهكِ . أحبكِ . كنتُ

أنظرُ إليه وأتمنّى لي آباءَ آخرين وأنساهم جميعاً لأنني ابنتك . كنتُ أراكِ تمشطين شعره كلَّ صباحٍ في بيتنا الدمشقي قبلَ أن يخرج سعيداً بحبك . كنتُ أراكِ تحرّكينَ يدَك على شعره القصير . كنتُ أعرفُ وتعرفينْ . هل كان إلى هذا الحد ؟ هل كنتِ إلى هذا الحدّ ؟ هل أحببتهِ في تاريخٍ مضى ؟ فتحتُ عينيَّ على نظراتكِ تخفينها بمهارة حاوٍ . في رأسي حاولتُ أن ألملم أطرافَ الحكاية مما كان يقولُ . أنتِ لم تقولي إلا القليلَ القليلَ . حاولتُ أن أفهم كي أحبكِ أكثر كي أشبهكِ أكثر والحكايةُ صارت حكايتي أنا. صارَ هو كالآخرين ممثلاً ثانوياً . ماتَ ودفنتهِ . لم أجرؤ يوماً أن أمُدَّ يدي إليّ لأنتزعكِ مني وأرميكِ بعنف بعيداً عني بعيداً عن حياتي . تركتُكِ جثةً . خنقتِني . كيف لم أمُتْ بكِ حتّى الآن ؟

أنا الآن وحدي ، في هذه المدينة الغريبةِ ،

مـقطوعـة من شـجـرة ، كـمـا كنتِ وحـدَكِ في تلك المدينةِ الغريبةِ ، مقطوعةٌ من شجرةٍ . التشـابهُ يقفُ هنا . أريدُ له أن يقفَ هنا .

بالأمس حلمتُ بك . لماذا تأتين إليَّ هذه الأيام؟ ماذا يحدثُ لكِ هناك في بيتنا الدمشقي كي تتشبثي بي هنا في آخر الدنيـــا ؟ كي تجبريني على قول مالم أقلْ . كي تجبريني على فضيحةِ وجعي .

بالأمسِ حلمت بكِ . لماذا تأتينَ إليَّ هذه الأيام؟ هل سيقولون لي إنّك قد متّ دونَ أن تغفري لي ؟ لمْ أبحثْ يوماً عنْ غفرانكِ . بحثتُ عن حبّكِ . ماذا أفعلُ بالغفرانِ أنا الكسيرة القلب ؟

٣- تكبرين معي .

كان يُسَبِّحُ بكِ . أُشبهكِ ؟ ينظرُ إليَّ هازئاً . أصِرُّ . ينظرُ إليَّ مستنكراً . أضحكُ . لا حاجة بي لشهادتهِ . أنتِ قلتِ لي . عندما نظرت الغزالة تلك النظرة الموارِبةَ التقتْ عيناهما وارتجفَ . ارتجفتْ بندقيّة الصيد في يده «كانت نظرتها ، سوادها وبياضها» كم مرّة سمعت منه هذه الحكاية ؟ كم مرّة استعدتُ منه هذه الحكاية ؟ مات قبلكِ في بيتنا الدمشقي . ماتَ ودُفِنَ بعيداً

وجئتُ على مهل . كم كنتُ أحبكِ . كم كنتُ أودُّ أن أُشبهكِ . كنتُ أودُّ وكنتُ مشروعاً كنتُ مسودَّةً . كنتُ صغيرةً وكنتُ أودُّ أنْ أُشبهك . يُطلُّ وجهي عليَّ في مرايا فأراكِ أمامي . أُشبهكِ ؟ أكثرَ فأكثرَ . أنتِ دائماً في مثلِ عمري . تكبرين معي . صغيرةً كنتُ أمسكُ بيدكِ أنظرُ إليك تتحركين تضحكين لامعة العينين متموّجةُ الشعر بقميصٍ يكشفُ بكرمٍ جمالاً بين العنق والصدر . لماذا لاتأتين إليَّ إلا في هذه الصورة ؟ أشبهك ؟ أكثرَ فأكثرَ . أمسكُ بيدِ ابنتي أتحرّكُ أضحكُ لامعة العينين متموجة الشعر بقميصٍ. التشابهُ يقفُ هنا . أُريدُ له أن يقفَ هنا . أمسكُ بيدِ ابنتي. لاتشبهني . لمْ تَرَكِ ولمْ تَريْها . أضمّها إليَّ وأتشممها. أحكي لها حكاياتٍ حلوةً عن جدّتها البعيدة في البيت الدمشقي . أضمّها إليَّ وأتشممها « لكِ رائحةُ أمي » أقولُ لها وتضحك دهشاً . ابنتي لا تشبهني . لم ترَكِ ولمْ تريْها . لها رائحتكِ وأتشممُها .

نوفمبر ١٩٩٣

أحابيل

عن أمجادهم يتحدّثون . الماضية والآتية .
لاأمجاد لي . لاأفتحُ فمي . كلماتي تنكتبُ في رأسي .
كلماتي لي وحدي . « الخطاب الموازي » كان يسميها
الصديق القديم ساخراً . كيف اكتشف السرّ ؟ قال النحيلُ:
« لم نسمعْ صوتَكِ » . « أفلامي صامتةٌ » أجيبُ ضاحكةً .
لم أنتقلْ إلى الكلام العلني بعدُ . بحاجة إلى درجةٍ عاليةٍ
من الحميمية كي أستطيعَ . لحسنِ الحظّ أنّ هناك الكتابة .
(وإن كانت سريّة ؟) . لغتي ضحكاتٌ وتعليقاتٌ سليطةٌ
ومؤثراتٌ صوتية . قال ع يوما : « لاتبدأ جملتك إلا

لتنتهي. تبترينها بضحكة . هل ستقولين يوماً جملةً مفيدةً؟» لِمَنْ؟

قال الملتحي إنّ البنت الأميريكية قالت له عيناكَ جميلتان . أنا لم يقلْ لي أحدٌ شيئاً . قال إنّها قالت له سأبقىَ معك الليلة . قال إنها تركتْ صحبتها في المقهى والتصقت به من أوّل نظرة . قال إنها قالت له أحبُّكَ في غرفة الفندق . قال إنّها قالت . قالَ : « الأميركيات لسْنَ معقداتٍ كالفرنسيات . » لم أكن أعرف أنّ الفرنسيات . والعربياتُ هل هنّ ؟ ماذا يُقالُ عنهنّ (عنّا) في مواقفَ كهذه ؟ لمْ أقلْ شيئاً . لحسن الحظ أنّ هناك الكتابةَ . (وإنْ لم يقْرأها أحدٌ) .

سألني ع ونحن نتمشى يوماً في حديقة جامعة دمشق : « ماذا تخبئين خلف عبثك وضحكاتكِ ؟ »

لماذا كان يتصوّرُ أني أخفي سرّاً ؟ لستُ قناعاً . هذه أنا : الخفةُ والجمل غيرُ المفيدةُ والتعليقاتُ السريعةُ واللغةُ المحوّةُ . كتب ل أنّ الدافع إلى الكتابة هو العزلة . بالكتابة نحاولُ كسرها . ماالدافعُ إلى أن نبلغَ كلماتنا ؟ ماذا نحاولُ أن نكسرَ ؟ ماذا نحاول أن نجبر ؟

قالَ المصوّر : « المهم هو أن نتحرّك ، أن نخرجَ، ان نصطدمَ بالعالم .» أنا أيضاً اريدُ أن أتحرّكَ ، أن أخرجَ . لا أريدُ أن أصطدمَ بالعالمِ . أريدُ أن أحيدَ عن دربه؟ كما فعلتُ دائماً ؟ .

يتحدّثون وأصغي وأكلّمُ نفسي . أسمعُ ولا أسمع . « الخطاب الموازي » قال ذلك الذي اكتشف السرَّ . كان الإخوة في البيت ثم الرفاق في الخليّة وهاهم الزملاء في العمل . يتحدّثون وأصغي وأكلّمُ نفسي ؟ ماذا تغيّر

ومَنْ ؟ الكلماتُ تتقاطعُ في فضاء المكتب وتتساقط جثثاً وأكلّمُ نفسي . أراها تخرج من فمٍ طلقةَ قناصٍ تطيرُ لتنقضّ على كلمةٍ خرجت قبلها . لايجبُّ الكلمة إلا الكلمة. تنزلقُ علي لاتتركُ حتى رنّتها . أسمعُ ولاأسمعُ . مرّتْ أصابعي على المخمل الأسود . وسادةٌ صغيرةٌ مدوّرةٌ « أنصحكِ . بعدَ نصف ساعةٍ من التأمّل الجماعي تُحسين أنَّ طاقتك قد شُحنت من جديدٍ وأنّ رأسكِ قد فرغ من .. العنوانُ في جيبي ورأسي فارغٌ . لماذا تحتاجُ إلى مرشدٍ روحي كي تفرّغ رأسها ؟ لستُ بحاجة إلى وسادةٍ مخمليّةٍ سوداءَ تحت مؤخّرتي وعقدِ الساقين والذراعين والتحديق في الجدار أمامي . رأسي فارغٌ . جداري أحملُهُ معي . جداري أمامي وأنا مفتوحةُ العينين عليه . ينزاحُ كستارة مسرحٍ وأخرجُ من كهفي عندما أريدُ . هذه بعضُ فوائدِ العائلة الكبيرةِ عدداً ؟ ماذا يتعلّمُ الصغيرُ في عائلةٍ كبيرة عدداً ؟ كيف يدافعُ عن نفسه . أنا دافعتُ بضحكاتي

بتعليقاتي السليطة بكلماتي المبتورة .دافعت بالصمم والعمى . هاأناذاأكتبُ وراء مكتبي صمّاءَ عمياءَ لااسمعُ ولاأرى في غرفةٍ تعجُّ بالضحكاتِ والكلمات والوجوه والحكايات كما كنتُ أكتبُ وظائفي صغيرةً صمّاء عمياء لااسمعُ ولاأرى في غرفةٍ تعجُّ . ماذا يتعلّمُ في عائلة كبيرة؟ لكلٍّ أحابيلهُ . أنا صرت صمّاءَ عمياءَ فارغةَ الراسِ مبلوعةَ الكلمات . لغتي ضحكاتٌ وتعليقاتٌ ومؤثراتٌ وجملٌ . لكلٍّ أحابيلُهُ ؟ أنا صرتُ كتيمةً كتيمةً لايدخلني إلا ماأنفتحُ له .

قال الملتحي : « البنتُ الاميركية بكتْ بدموعٍ حارةٍ . حرام . أحبّتني فعلاً .» وأنتَ ؟ لم أسألْ . كنتُ مشغولةً بتخيّلِ المشهدِ كما يرويه هو . لماذا لم يحبُّني أحدٌ من أوّلِ نظرة ؟ لماذا لم أحبُّ أحداً من أوّلِ نظرة ؟ ماعددُ النظرات التي أحتاجها كي ؟

قال المصوّر : « البقاء في المكان لايعلّمُ شيئاً .»
ماذا أتعلّمُ بين العمل والبيت ؟ رهينةُ المحبسين . الدائرةُ مغلقةٌ وأنا أركضُ في حياتي . كان حيواناً صغيراً يركضُ على دولاب صغير . لايتوقّفُ عن الركض . أسمعُ صوتَ حركته في قلبِ الليل . بقي عندنا عاماً أو بعضَ عام . ركض على الدولاب حتى نفقَ . رمينا الجثة في الزبالة وخبأنا القفص . أقنعتُ ابني بسمكةٍ حمراء تسبحُ في الماء. إلى أين كان يمكن له أن يصلَ لو ركضها خطّاً مستقيماً ؟

قال المصوّر : « المهم أن نتحرّك .» لاأستطيعُ أن أحرك حتى إصبعي الصغير . مغلفةٌ بضماداتٍ متخشبةٍ . تلتفُّ وتلتفُّ وتلتفُّ . قد يُمسكُ طرفُ القماشِ الأبيضِ يوماً وأبداً في الدورانِ كالخذروف . أبرمُ أبرمُ أبرمُ . لايبقى مني إلا الضماداتُ ملتفةً على الأرض أفعى ميتةً . لحسن الحظ أن هناك الكتابة (وإن لم تُكْتَبْ ؟)

قال المصوّرُ : « المهم أن نفعل شيئاً . أن نتركَ وراءنا . » ماذا فعلت في حياتي ؟ حصلتُ على ماأريدُ أم أردتُ ماحصلتُ عليه ؟ درستُ . عملتُ ، أحببتُ ، تزوّجتُ ؟ حتى جدّتي فعلتها أو كان يُمكنُ لها . أسافرُ ، أضحكُ ، ألعبُ لعبةَ الغواية ؟ طز . ماذا يبقى ؟ هل أريدُ أن؟ تبقى اللمعةُ في عينيَّ . هل هي كذبة أيضاً ؟ « العطالةُ العقليةُ عادةٌ عندكِ . أدمنتِها ولنْ تتخلّصي منها أبداً . » كم مرّةً قالها وأعاد . يدخلُ الغرفةَ ويراني مفتوحةَ العينين : « الأيّامُ تكرُّ ، تهربُ ، أفيقي . » أبتسمُ وأتظاهرُ . أمضيتُ حياتي نائمةً . الأيّامُ تكرُّ ببلاهةٍ وإحكامُ قبضتي عليها لن يُجدي شيئاً . لتبقَ يدايَ مفتوحتين ولتكرّ الأيّام ببلاهة.

قال النحيلُ : « لم نتخلّص من عقدة السيّد والعبد . علينا أن . » قال الملتحي : « الأميركيةُ سافرت .

وعدتُها بالكتابة . أعطيتُها عنوانَ المكتب . زوجتي تجيدُ الإنكليزية . مصيبةٌ لو وقعت رسالةٌ في يدها . » يضحكُ يضحكون أضحكُ. ليس لديَّ حكاياتٌ. لا من هذا النوع ولا من نوع آخر. ليس لديَّ حكاياتٌ . لاحقيقيةٌ ولا مُخْتَلَقَةٌ. ليس لديَّ كلماتٌ علنيّة. كيفَ ندافعُ عن أنفسنا؟ حكيتها لنفسي وصارت عادة. ليس لديَّ حكايات. قصورٌ في الحياة أم قصورٌ في المخيّلة ؟ في الاثنين معاً ؟ لحسن الحظّ أنَّ هناك الكتابة :

تتفتّحُ فيَّ الكلماتُ بحذرٍ كابتسامة متردّدة

١٤ آذار ١٩٩٤

رقم الإيداع	٩٤/٤٦٦١
رقم دولى - ٠٤٦ - ٢٢١ - ٩٧٧	

وعدئ

الإنكا

يضـ

ولا د

مُخْنْ

حك

في

الـ

مطابع روزاليوسف الجديدة

... «ماذا فعلت في حياتي؟ حصلتُ على ما أريدُ أم أردتُ ما حصلتُ عليه؟ درستُ، عملتُ، أحببتُ، تزوّجتُ؟ حتى جدّتي فعلَتْها أو كان يُمكنُ لها. أسافرُ، أضحكُ، ألعبُ لعبةَ الغواية؟ ماذا يبقى؟ هل أريدُ أن تبقى اللمعةُ في عينيَّ؟ هل هي كذبةٌ أيضاً؟ «العطالةُ العقليةُ عادةٌ عندكِ. أدمنتِها ولنْ تتخلّصي منها أبداً». كم مرّةً قالها وأعاد. يدخلُ الغرفةَ ويراني مفتوحةَ العينين: «الأيّامُ تكرُّ، تهربُ، أفيقي». أبتسمُ وأتظاهرُ. أمضيتُ حياتي نائمةً. الأيّامُ تكرُّ ببلاهةٍ وإحكامُ قبضتي عليها لن يُجدي شيئاً. لتبقَ يدايَ مفتوحتين ولتكرّ الأيّام ببلاهة.

... ليس لديَّ حكاياتٌ. لا من هذا النوع ولا من نوعٍ آخر. ليس لديَّ حكاياتٌ. لا حقيقيةٌ ولا مُختَلَقةٌ. ليس لديَّ كلماتٌ علنيّة. كيفَ نُدافعُ عن أنفسنا؟ حكيتُها لنفسي وصارت عادة. ليس لديَّ حكايات. قصورٌ في الحياة أم قصورٌ في المخيّلة؟ في الاثنين معاً؟ لحسن الحظّ أنَّ هناكَ الكتابة: تتفتّحُ فيَّ الكلماتُ بحذرٍ كابتسامة متردّدة» ...

* سلوى نعيمي كاتبة وصحافية مقيمة في باريس